

الباب الثاني

أسباب الثورة الفرنسية

الفصل الأول

حالة الشعب الفرنسي قبل الثورة

(١) التفرقة بين الطبقات :

كان الشعب الفرنسي ينقسم الى ثلاث طوائف متميزة :
(الأولى) طبقة الأشراف . (والثانية) طبقة رجال الدين .
(والثالثة) طبقة العامة .

فأما طبقة الأشراف فانها كانت لا تزال تتمتع بكثير من امتيازاتها التي ورثها عن عهد الأقطاع والتي كانت في مقدمة ما يشكوه الشعب الفرنسي من آثار العهد القديم . ولقد اطلعت

على كراسة احتجاجات قدمها أهالى منطقة (كاركاسون) الانتخابية الى الملك لويس السادس عشر وضمنوها بيان شكاياتهم المختلفة وليس أفصح من هذا المستند التاريخى فى الدلالة على ما كان عليه الشعب الفرنسى فى ذلك العصر من سوء الحال — وها أنا أنقل اليك ما جاء فى هذه الكراسة لتسمع بأذنك أنه من تلك الأنات اليائسة التى كانت تذهب أدراج الرياح :

« ان الطبقة الثالثة من منطقة كاركاسون تريد أن تقدم الدليل الثابت على ولائها واحترامها لمليكيها المحبوب وأن تتعاون مع الأمة بأسرها فى تدارك النكبات المتعاقبة التى حلت بالبلاد وخيمت عليها منذ زمان بعيداً ملامنها فى احيائها واستعادة مجدها التآل بأن تصرح لجلالتكم أنها على يقين من أن سعادة الشعب مرتبطة بسعادة مليكه وثبات حكومته والمحافظة على النظام والقانون .

ونظراً لما فى تقدير الدين واحترام الحرية المدنية والمحافظة على حقوق الملكية والاستناد الى أساس عادل فى تقدير الضرائب وفرضها واتباع وسائل الاقتصاد فى نفقات الحكومة ، والأخذ بسبل الإصلاح فى جميع فروع الادارة من العوامل التى لا بد من توافرها لصيانة الحكومة الملكية واستقرارها ؛ تتقدم الطبقة الثالثة من منطقة كاركاسون الانتخابية بكل خضوع الى جلالتم راجية أن

توضع هذه المسائل كلها موضع اعتباركم السامي وتوزن بميزان تقديركم الحكيم لينشرح صدر الشعب بقيام دليل على اهتمامكم بشئونه وتوليكم له بحسن رعايتكم .

« ولما كانت قد صدرت أوامر جلالتهكم بوجوب رفع شكاياتنا الى مسامعكم الأبوية وعرض ما يلتمس لها من وجوه العلاج فانا نعتقد أننا نقوم بالواجب علينا حينما نلجأ الى ما يمكنه صدركم من العطف والعدل نحو شعبكم بعرض ما يأتي :

(١) ينبغي ألا يقام جهارا من الشعائر الدينية الا ما كان خاصا بالمذهب الكاثوليكي .

(٢) ولكن لا ينبغي أن يكون لذلك أدنى مساس بما لغير الكاثوليك من الحقوق الدينية .

(٣) ينبغي أن يوقف دفع ما هو مفروض على فرنسا للبابا من المخصصات السنوية .

(٤) ينبغي ألا تفرض على الأمة ضريبة الا بعد موافقتها على تحصيلها .

(٥) وأن يوضع نظام معين محدود لانعقاد الجمعية العمومية .

(٦) ولكى يتوفر للطبقة الثالثة ما هو حق لها من الدفاع عن مصالحها ينبغى أن يؤخذ عند الاقتراع على المشروعات بنظرية التصويت الفردى .

(٧) لا حق لطائفة أو جمعية أو فرد فى أن يعفى من دفع الأموال الأميرية بل ينبغى أن يكون نظام الضرائب عاما على الجميع .

(٨) ينبغى أن تلغى القيود التى تحرم أهل الطبقة الثالثة من الحصول على بعض الوظائف والرتب التى تعتبر الآن وقفا على الأشراف وذريتهم . ولا بد من صدور قانون يفسح لأهل الطبقة الثالثة طريقاً الى هذه المراكز ما دامت تتوفر فيهم الكفاءة لها .

(٩) نظرا لما بين الحرية الفردية والحرية القومية من الصلة الوثيقة نلتزم من جلاله الملك أن يوقف العمل بنظام (الخطابات المختومة) التى تقضى على الحرية الفردية وترمى إلى السجن بأى إنسان من غير تحقيق ولا محاكمة .

هذا بعض ما ورد فى تلك الكراسة من المطالب وكل واحد من هذه المطالب يعتبر علاجاً لشكاية من شكايات الشعب .

(٢) الخطابات المختومة :

ولكى تقف على تاريخ هذه الخطابات المختومة التى ورد ذكرها فى الفقرة الأخيرة وتعرف مقدار خطرها أورد لك فيما يلى ترجمة

الاحتجاج الذي قدمته إحدى المحاكم الفرنسية للملك لويس الخامس عشر في شأن رجل اسمه « مونرا » اتهمه جباة الضرائب بالتهريب فحصلوا من الملك على (خطاب مختوم) استعانوا به على إلقاءه في السجن حيث بقى عشرين شهرا ثم خرج فرفع الدعوى على أولئك الجباة يطالبهم بتعويض مالى باهظ نظرا لأنه حبس ظلما لمجرد اشتراكه في الاسم مع غريم الجباة الذي كان يقصد حبسه . فلما قضت له المحكمة بالمبلغ الذى طلبه احتسب الجباة (بمجلس الملك) فألغى الحكم . فأحدث ذلك فى نفوس الناس ولا سيما المحكمة التى أصدرت الحكم اشمئزا ترى مرارته فى عبارة الاحتجاج التالية التى وجهتها للملك على أثر هذا الحادث :

« مولاي :

نظرا لما يحول دون قيام هذه المحكمة بواجبها القضائى من العقوبات الغير الشرعية والتى لا يمكن أن تصدر عن جلالتكم شخصيا . نرجو أن نرفع بكل خضوع واحترام هذا الاحتجاج . قبض جباة الضرائب على رجل اسمه « مونرا » من غير مراعاة الإجراءات القانونية التى يجب اتباعها فى مثل هذه الأحوال . وألقى الرجل فى السجن بعد ذلك بقليل حيث قضى عشرين شهرا . ولأن ذلك بناء على أمر صادر باسم جلالتكم ولسنا نقدم هذا

الاحتجاج على طول المدة التي قضاها ذلك الرجل في سجنه ولكن ذلك السجن يشتمل على حفر معتمة أعدت للمجرمين الذين صدر عنهم عفو بعد الحكم عليهم بالأعدام وكان سبب العفو اعترافهم على زملائهم الذين اشتركوا معهم في جرائمهم . ولعل الدافع الى الحكم عليهم بالحياة في هذه الحفر هو حملهم على أن يختاروا لأنفسهم الموت راضين بعد صدور العفو عنهم . ولما كان لا بد من توصيل شيء من الهواء الى تلك الحفر مع بقائها في ظلام حالك ركبت فيها أنابيب توصل اليها القليل من الهواء دون أن تسمح بنفاذ شيء من الضوء وكان يشد وثاق أهل تلك الحفر الى جدرانها بسلسلة ثقيلة ؛ ولم يكن يسمح لهم فيها بغير شيء تافه من القش والخبز القفار . ولا شك أنكم ترون جلالتم أن تهمة التهريب لا تكفي لأن يطرح انسان في هذا القبر المريع شهرا واحدا .

ولقد روى « مونرا » نفسه — وأيد قوله الشهود — بأنه بعد اخراجه من هذا الكهف الدفين أدخل غرفة أخرى أقل منه ظلاما وقضى فيها زمنا غير قصير . ولقد كان هذا الاحتياط لصالح السجنين نفسه فقد دلت التجارب الأليمة السابقة على أن من الخطر البين أن يبعث الإنسان دفعة واحدة من جوف تلك الحفر الى ضوء النهار والهواء الطلق .

فلما خرج مونرا من سجنه رفع الدعوى على الجباة يطالبهم بالتعويض على ما وقع له لاسيما وهو ما برح يؤكد أثناء سجنه وبعد ذلك أنه لم يكن هو المقصود بالسجن ولا شك أن جلالتم وأنتم تصدرون أمر الحبس لم يكن في نيتكم أن يبقى المتهم نزير السجن زهاء عامين حتى تجتمع الأدلة على إدانته .

ومع ذلك فقد جرت عادة الجباة كلما اتهموا إنسانا بالتهريب وأعوزهم الدليل القاطع على إثبات التهمة عليه أن يلجأوا الى استصدار أوامر جلالتم المعروفة باسم « الخطابات المختومة » لتوقيع العقاب على ذلك البائس .

وهكذا تكون هذه الأوامر التحكيمية سبباً في انتهاك أقدس الحريات ويسير ضحيتها الى قبره وهو لا يعلم من الذى يطارده . فاذا كان يستطيع من يحصل على هذه « الخطابات المختومة » أن يحتمى بجلالتم من أحكام القضاء فكيف يتسنى لنا يامولاي أن ندعى أننا نعيش فى حماية القانون وتحت ظله لاسيما بعد أن كثر استعمال هذه « الخطابات » وأصبحت تمنح لكافة الأغراض ولا اعتبارات شخصية محضه . لقد كان استعمال هذه الخطابات يامولاي فى بدء الأمر قاصراً على الحالات السياسية وكان من واجب المحاكم اذ ذاك أن تحترمها وترضخ لأحكامها ولكنها لم تلبث

أن تطورت فأصبحت تمنح فى حالات خاصة يتأثر فيها الملك بدموع أسرة تخشى على سمعتها الفضيحة والعار (كما كان يحدث عند ما يلوث بعض الأبناء سمعة أسرهم بسوء سلوكهم) . أما اليوم فقد أصبحت ضرورة لازمة كلما لحقت بعض ذوى الاعتبار أية إهانة من أحد العامة كأن ليس لدى هؤلاء (المعتبرين) ما يكفيهم من الامتيازات !

وان كثيراً من هذه الأوامر التى توقعونها جلالتم تحمل من الأسماء النكرة ما لا يمكن أن يكون قد وصل يوماً الى سمع جلالتم وذلك لأنها تحت تصرف وزرائكم بل وكتاب وزرائكم أيضاً كما يبدو من كثرة ما يوزع منها . ولا شك أنها أصبحت تصل الى كثير من الأيدى بعد أن رأيناها فى يد الجبابة . وفى يد عملائهم ووكلائهم .

والنتيجة يا مولاي أن أحداً من أفراد رعيتكم لن يشعر بأنه آمن على حريته مع وجود هذه « الخطابات » اذ من ذا الذى يدعى العصمة من الوقوع يوماً ما فيما يدعو الى غضب بعض الوزراء أم من ذا الذى تبلغ به الضعة أن لا يحتك بكاتب أو عامل من عمال الخراج ؟ سوف يأتى يا مولاي ذلك اليوم الذى ترون فيه من سوء أثر « الخطابات المختومة » ضرورة القضاء على هذا النظام الذى

لا يتفق مع قوانين المملكة وروح الحرية التى يجب أن يتمتع بها رعاياكم. اه (١).

(٣) حق الصيد :

ولقد تردد على فرنسا فى تلك الفترة سائح انجليزى اسمه آرثرينج (Arthur Young) ووصف حالة الشعب الفرنسى ، وما كان فيه من الجهل والظنك ؛ وحالة بعض البلاد وما كانت عليه من الحقارة والقذارة . وفيما يلى بعض ما كتبه عن حق الصيد الذى كان يتمتع به الأشراف :

كان الملك يمنح أمراء بيته حق الصيد فى ضيعة من الضياع لا هى من ملك الملك ولا هى من ملك الأمير . وكان معنى هذا الحق أنه يصبح محظورا على أى انسان غير هذا الأمير أن تمس يده شيئا من الصيد الذى يوجد بهذه الضيعة طيرا كان أم وحشا . وكثيرا ما كان ذلك سببا فى تلف الزراعة كما كان أيضا سببا فى تعمير السجون بأصحاب الحقول التعساء الذين كانوا يقدمون على قتل تلك الحيوانات إبقاء على ما تخرجه الأرض من طعام نزرلهم ولأبناءهم البائسين .

وكان يتم هذه الحقوق عدة لوائح توجب على أصحاب تلك الضياع أن يحافظوا على الصيد فكان ممنوعا عليهم تنظيف الحقول وتنقيتها مما ينبت فيها من الحشائش خشية تنفير أفراس الطيور وكان محظورا تسميد الحب خشية أن يكون فى ذلك أذى للطيور وكان لا يجوز قطع البرسيم وغيره قبل موسم خاص كان تأخره يضر بكثير من الحاصلات كما كان لا يسمح بتقليع الجذور من الأرض اذا كان بقاؤها ينفع الطيور كمشوى تأوى اليه .

(٤) تعاسة العامة وبذخ الأشراف :

ذلك ما قاله (يونج) عن حق الصيد . ودونك ما قاله أيضاً عن باريس ووصف شوارعها فى سنة ١٧٨٧ :

« ان هذه المدينة العظيمة هى آخر مدينة تصلح الإقامة فيها بين كل المدن التى زرتها . فالطرق غاية فى الضيق ، وكثير منها شديد الازدحام وتسعة أعشارها قدر وكلها من غير إفريزيسير عليه المارة فى راحة واطمئنان والمشى الذى يمتاز فى مدينة لندن بأنه لنذيد نظيف حتى ان السيدات يخرجن للترويض به كل يوم هو فى هذه المدينة عناء ومشقة تثقل كاهل الرجال . أما السيدات فمن المستحيل أن تقدم منهن واحدة على هذه الرياضة وعليها ثوب

نظيف . والعربات كثيرة العدد ولكن ما هو شر من ذلك كثرة العجلات ذات الحصان الواحد التي يسوقها (فتيان العصر) كالمجانين ، بسرعة مزعجة تجعل عابر السبيل في خطر محقق . ولقد شاهدت بعيني إحدى هذه العجلات تدهس صبياً وربما تكون قد أزهقت روحه .

أما عن نفسي فقد كثرت ما أصابني من رشاش الوحل الذي ترمى به هذه العجلات » اه .

وليس أفكك بعد هذه الصورة القذرة من أن أقدم لك رسالة كتبها (مدام دي سيفيني) تصف فيها سويغات من زيارة قام بها الملك لويس الرابع عشر لقائده العظيم (أمير كوندى) في (شانتيلى) كما ترى الفرق بين حياة الطبقتين . حياة العامة . وحياة الأمراء وعلى رأسهم الملك :

« وكان الطريق مفروشا بزهر النرجس ، وسار كل شيء على مايرام . ثم جاء العشاء ولم يكف الشواء نظراً لحضور ضيوف لم يكن يتوقع أحد حضورهم ، فطار لذلك لب (فاتيل) — أمير الطهاة — ولقد سمعته يصيح أكثر من مرة . (لقد قضى على شرفي ولن تقوى نفسي على احتمال هذه النكبة) وسمعته يقول (لجورفيل) « أحس بمخى يسبح في جوف رأسي . لم أنم منذ اثنتى عشرة ليلة ،

ساعدنى فى تنفيذ أوامرى » . فواساه جورفيل بأرق الحديث ، ولكن الشواء الذى لم يقدم على المائدة — لا مائدة الملك ولكنها المائدة الخامسة والعشرون — كاد يذهب بعقله .

وحمل جورفيل الخبر إلى القائد الأمير . فذهب (كوندى) إلى غرفة (فاتيل) الخاصة وقال له : « كل شىء على ما يرام يا فاتيل . ولا شىء أحسن من عشاء الملك هذا المساء » . فأجابه شيخ الطهاة :

— « يا مولاي إن رقتك تخبلنى . إنى أعرف ان الشواء لم يقدم على مائدتين ! » .

— « لا شىء من ذلك يا رجل ! لا تزعج خاطرك . أن كل شىء على ما يرام ! » .

وانتصف الليل ، ولم تنجح الألعاب النارية لأن سحابة ظلمتها (وكانت تكاليف هذه الألعاب ١٦,٠٠٠ فرنكا) وفى الساعة الرابعة صباحا كان فاتيل حائرا حائما يحول فى كل مكان والناس جميعا فى سبات عميق . فالتقى بمتعهد صغير ومعه حملان من السمك فسأله : أهذا كل شىء ؟ فأجاب الرجل : نعم يا سيدى ! ولم يكن يعرف أن فاتيل أرسل الى جميع الموانى الفرنسية فى طلب السمك لوليمة الملك . وانتظر فاتيل قليلا ولكن لم يرد من المتعهدين الآخرين

أحد . فاضطربت أعصابه وظن أنه لن يحصل على غير ما حمل إليه هذا المتعهد من السمك . والتقى بجورفيل فقال له . « لن أستطيع الحياة يا سيدي بعد هذا الخزي العظيم » . فضحك من كلامه جورفيل . غير أن فاتيل صعد الى غرفته ووضع سيفه في الباب ثم أقبل عليه بصدرة فأغمده فيه . ثم خر على الأرض قتيلًا !

وفي خلال ذلك كان السمك يتوافد من كل فج والناس يبحثون عن فاتيل لتوزيعه . فصعدوا اليه في غرفته وطرقوا بابها ثم كسروه فوجدوا المسكين غارقا في دمه ، فأرسلوا الى الأمير فتملكه اليأس وحمل الخبر الى الملك العظيم وهو يقطر حزنا . واتفق الجميع على أن المأساة ترجع الى أن مستوى الشرف الذى كان يعمل فاتيل بمقتضاه كان من السمو بمكان وامتدحوا شجاعة الرجل ! وإن كان لم يخل من لومهم اياه . وقال الملك انه آخر موعد هذه الزيارة خمس سنوات لعلمه بما سوف تحدثه من المشقة الهائلة ثم قال للأمير انه كان ينبغى عليه أن يعد مائتين اثنتين دون أن يشغل كاهل نفسه بحمل مسؤولية كل انسان وانه لن يسمح للأمير بأن يفعل ذلك مرة أخرى ! ولكن هذه التدابير جاءت متأخرة جدا بالنسبة لفاتيل المسكين !

على أن جورفيل حاول أن يسد مسد فاتيل ونجح فعلا في ذلك

فكان الغذاء فاخرا ، ولذلك كان العشاء . ولقد قام الجماعة فمشوا
ولعبوا وخرجوا للصيد . وكانت رائحة النرجس تملأ الجو ، وكان
كل شيء على ما يرام ! » اه (١) .

هكذا كان الفرق جسيما بين حياة الطوائف فى فرنسا .
فالأمراء والملوك فى كذبة متخمة والعامّة من تحتهم فى مخمصة
مؤلمة . وهكذا كان يعيش أهل الطبقة العليا على لحوم الطيور
المغرّدة ، ويسيطرون على أوراق الزهر الناضرة بينما كان أهل الطبقة
الدينا يعيشون فى بيوت كأوجار الكلاب لا مداخن لها ولا
نوافذ . ويخطرون فى أسبال بالية لا شبيه لها إلا صبرهم الممزق
النافذ بما هم عليه من سوء الحال !

(٥) الفوضى العامة وفوضى الضرائب :

وخلاصة القول أن فرنسا لم تكن تشكو فى سنة ١٧٨٩ فساد
النظم فيها ، ولكنها كانت تشكو عدم وجود شيء من النظم . كانت
تشكو الفوضى فى كل شيء ، الفوضى فى الحكومة حيث كان للبلاد
مجلس نيابى ولكنه لا يجتمع ، والفوضى فى المجتمع حيث كان
الأشراف يتمتعون بامتيازات عهد الاقطاع ولا يقومون بشيء من



لويس الرابع عشر

عمل أمراء الاقطاع ، والفوضى في الضرائب حيث كانت تجبى من فريق دون فريق وتجبى في أوقات لا يعرفها الا الجبابة ، وبمقاديرهم الذين يقدرونها حسب أهوائهم ، والفوضى في القوانين حيث كان لكل ولاية قانونها الخاص الذى يخالف قانون جاراتها ، والفوضى في التجارة حيث كانت تجبى الرسوم والجمارك على السلع التى تنتقل من ولاية الى أخرى كما لو كانت خارجة من حدود البلاد كلها أو داخلية اليها .

على أن أقسى صنوف هذه الفوضى كانت فوضى الضرائب ، فقد كان توزيعها غاية في الظلم وسوء التدبير ؛ كان الأشراف يملكون نصف أرض فرنسا تقريبا وهم لا يزيدون عن ٣٠٠,٠٠٠ ر. ٢٥ بينما كان النصف الثانى ملكا للشعب وعددهم يربو على ٢٥ مليوناً . ومع ذلك فكان الأشراف لا يدفعون شيئاً من الضرائب على أرضهم فى حين كان يدفع الفلاح ضريبة ثقيلة فادحة عما يملك . ولقد كان الفلاح يدفع هذه الضريبة على عقاره ويدفع ضريبة غيرها على الملح اسمها (جايل) وكانت الحكومة تحتكر بيع الملح فى ذلك الوقت وتفرض على كل انسان أن يشتري منه قدراً معلوماً كل عام سواء أكان فى حاجة اليه أم لا حاجة له به . وكان الثمن على الرغم من تحديد الحكومة له يختلف باختلاف

الأقاليم . فأقبل الناس على تهريبه من جهة الى أخرى وكانت تمتلئ السجون بمهربيه من جراء ذلك . وليت الأمر كان قاصرا على ذلك ولكن كان على الفلاح أن يدفع ضريبة ثالثة للكنيسة ، وضريبة أخرى للشريف . ولقد قدر أن الفلاح كان يدفع من كل مائة فرنك تصل الى يديه ٥٣ فرنكا للحكومة و ١٤ للكنيسة و ١٤ للشريف ، والتسعة عشر فرنكا الباقية هي التي كانت تترك في يد المسكين لسد حاجاته وحاجات أهله (١) .

ولكن مهما يكن من بؤس الفلاح الفرنسى فلا شك أنه كان أحسن حالا من أمثاله في البلاد الأخرى عدا إنجلترا وإيطاليا كانت الثورة في فرنسا دون تلك البلاد للأسباب الآتية :

(أولا) لما امتازت به النفسية الفرنسية من الخفة وسرعة التأثر . ولتوفر عوامل الثورة الأخرى في فرنسا (سوء تصرف الحكومات الماضية ، وهبوط سمعة الملكية ، وتأثير الكتاب والمفكرين ، وسريان عدوى الثورة الأمريكية الى فرنسا عن طريق المتطوعين الذين اشتركوا في حرب تحرير أمريكا ؛ وغير ذلك من الأسباب التي سنفصلها في الصفحات التالية) .

(وثانيا) لأن ما كان يتمتع به الشعب الفرنسى من الرفاهية

النسبة فى عهد لويس السادس عشر ووزرائه الأول المصلحين
أثار فى النفوس الرغبة فى المزيد فلم يكفد يتنفس الشعب الصعداء
بعد لويس الخامس عشر ويتذوق طعم الحرية والإصلاح فى بدء
حكم لويس السادس عشر حتى قويت رغبته فى الحصول على
حقوقه كلها كاملة غير منقوصة . وقدما قيل :
« ان الطعام يقوى شهوة النهم »

الفصل الثاني

حكومة فرنسا قبل الثورة

(١) لويس الرابع عشر يستنفد موارد بلاده :

لقد بينا في الكلمة التي كتبناها عن نظام الاقطاع أن حكومة فرنسا ظلت تحت تأثير هذا النظام عصراً طويلاً كانت السلطة فيه موزعة بين الأمراء ؛ وأن لويس الحادى عشر تمكن من أن يرد على الملكية شيئاً من هيبتها الضائعة . ولكن فرنسا بقيت تمرقها الانقسامات الدينية زمناً طويلاً ، وليس فى الناس من لم يسمع بكاترين دى مديتشى أرملة هنرى الثانى ملك فرنسا وما وقع فى عهدها من الحوادث الفظيعة التى سببها تعصبها الشديد للكاثوليكية وعداؤها للهييجونوت (البروتستانت) وأخص هذه الحوادث بالذكر مذبحه سنت برثلييو سنة ١٥٧٢ التى فى فيها ما لا يقل عن ٢٠.٠٠٠ بروتستانتى

وبقى مركز الملكية فى فرنسا من جراء تلك القلاقل مزعزعا غير ثابت حتى أدركه هنرى الرابع سنة ١٥٨٩ فعمل على تثبيته

الذى أنهك قوى البلاد، وسلك فى مناوأتة للاشراف طريقاً فعالاً
عنيفاً سار على أثره فيه ريشليو ومزران فهدا بذلك للويس الرابع
عشر أحسن تمهيد حتى أنه لما استقل بالأمر كان لا يرتفع فى فرنسا
كلها صوت الى جانب صوته ولا يعلو فيها رأس أمام عظمتة ،
عنه وحده يصدر كل رأى نافذ واليه وحده يرجع الأمر كله .
ولا شك أن هذا الملك العظيم آنس كل هذه القوة فى نفسه وعرف
مقدار سلطانه وبأسه حين قال : « الحكومة ! انى أنا الحكومة ! »
بل انه كان فوق ذلك كثيراً . انه كان الروح المحركة للسياسة
الدولية فى عصره حتى ليسمى تاريخ القرن السابع عشر كله بعصر
لويس الرابع عشر .

ولكن لا ينسى المؤرخ وهو يصور عظمة لويس الرابع عشر
ويبين كيف ارتفعت سمعة الملكية فى عهده أن يصور كذلك
مجهود الشعب الفرنسى التعس وهو يحاول تغذية كبرياء هذا الملك
العظيم واشباع أطماعه المنهومة ، وأن يبين كيف قبضت يد لويس
الحديدية على فرنسا وهى غصن أخضر وضرع درار ، تخلفتها
بالاسراف وكثرة الحروب عوداً يابساً وعيناً ناضبة

لقد نجح لويس العظيم فى أن يجعل باريس عاصمة أوروبا
وأن يملأ اسمه فراغ القرن السابع عشر بأكملة ، ولكنه لم يحصل

على ما حصل عليه الا بدم شعبه وأمواله ؛ فلم تلبث تلك الجذوة الوهاجة التي أضرمتها أنفاسه القوية أن استحالَت بعد موته رمادا ولم يلبث ذلك الملك الواسع الذي كان يسنده عاتقه العريض أن انهار واستحال أنقاضاً

(٢) لويس الخامس عشر :

يقضى على سمعة الملكية

بينما كيف كانت فرنسا في عهد لويس الرابع عشر في حالة يرثى لها وكيف كانت تنأى أنيناً مفجعاً تحت تأثير جراحها المنهورة، ولكن أناتها ضاعت وسط أناشيد النصر الذي أحرزه لويس ، وجروحها اختفت تحت أكاليل الغار التي غمرتها بها يده . بيد أن الدهر دار دورته وانقضت أيام لويس العظيم فمات ودفن ، ودفنت معه أناشيده وأكاليله، وانكشفت فرنسا الحكيمة المسكينة على حقيقتها بين يدي لويس الخامس عشر ، فاذا هي أضيع تركة وقعت لأعبث وارث؛ فانه لم يكن يفكر الا في نفسه وفي خليلاته وقضى عمره في عبادة شهواته ، وترك الملك لعشيقاته يدرنه كما شاءت أهواؤه المتقاربة ولقد انهارت الساطات المعروفة كلها في عهد هذا الملك الخليع فالملكية التي كانت عالية الرأس أيام لويس الرابع عشر والتي

بما أوتيته من الحزم وأصالة الرأي فقضى على عوامل النزاع الدينى
اجتمعت فى يدها كل السلطات تراخت وانتكس رأسها فى عهده
ولم يبق للملك أية سلطة على أحد من رعيته السابقة اللهم الا رجال
صيده وخيله . وانحصرت فى هذا الوسط الضئيل دائرة عمله حتى
لقد كان يقال عنه يوم لا يخرج للصيد : « ان جلالة الملك لا عمل
له اليوم »

والكنيسة التى كان يصغر أمامها كبرياء الملوك والتى كان لها
من السلطة ما جعل أحد العواهل العظام يقف تحت الثلوج
بملايس التكفير ثلاثة أيام سوياً وهو عارى القدمين أصبحت
اليوم تغتبط أن ترتدى فى أحضان تلك الملكية المتداعية لتستمد
منها النفوذ

والفرسان من الأشراف الذين كان لهم من النفوذ ما يهز
قوائم العرش تحت أقوى الملوك فى الأجيال الماضيه أصبحوا
مشردين يأبى عليهم الملوك أن يتخذوا سروجهم وسيوفهم مرتزقاً
لهم ، وانزروا فى ساحات البلاط الملكى ولاذوا بكنفه وباتوا بعد
حياة البطولة والشهامة يتنافسون فى ميادين الذلة والملق لينالوا
الحظوة عند صاحب العرش (١)

(ب) الكتاب والمفكرون يكوّنون في ظل غفلته
رأيا عاما مستنيرا

ولكن ان تكن هذه السلطات قد انهارت فقد قامت على
أنقاضها سلطات أخرى تتفق مع روح العصر وحاجاته ؛ فهناك
قامت سلطة رجال القانون الذين نسجوا فيما بعد للثورة شرائعها
ووضعوا قوانينها ، وهناك قامت سلطة رجال التجارة الذين تحكموا
بأموالهم في مستقبل البلاد ، وهنا لك قامت كذلك سلطة أخرى
كانت أقل السلطات ظهورا ولكنها كانت أبعدها أثرا ؛ تلك
سلطة رجال الأقلام الذين خلقوا بكتابتهم في فرنسا رأيا عاما .
كانت أولى صفاته التشكك وعدم اليقين واتهام كل ما أحاط به
من النظم بالفساد .

ولقد رأيت مثالا من كلام هؤلاء الكتاب فيما أوردته لك
عن روسو ونظرياته السياسية ولا يفوتني هنا أن أذكر لك أسماء
فولتير ، ومونتسكيو ، وديدرو ، ودالمير ؛ لتعرف أى الأقلام
تلك التى حملت لواء الديمقراطية أمام دول الأرض وسارت بالقافلة
التى تبعتها ذلك الشوط البعيد .

فأما فولتير فهو تلك القوة الهائلة التي كان يرهبها كل ذى سلطان في القرن الثامن عشر ، نشأ في أواخر أيام ملك فرنسا العظيم لويس الرابع عشر فلفت نظره ذلك السلطان الواسع وأنانية صاحبه الى حد مصادرة كل من يجرؤ على ادعاء شيء من السلطة سواه ؛ كما لفت نظره سلطان رجال الكنيسة وتعصبهم لمذهبهم الى حد تعذيب كل من يجرؤ على اعتناق أى مذهب آخر فسخر من هذه العظمة المزيفة التي تقوم على القهر واستهزاء بأصحابها وجعل دأبه مناهضة هذا السلطان الغشوم المستبد ، وبدأ حياته وهو في العشرين من عمره برسالة عرض فيها بالكنيسة ولويس الرابع عشر وكان جزاؤه عليها بضعة أسابيع قضائها في سجن الباستيل ؛ ولكنه خرج بعد هذه الأسابيع القليلة وقد كتب على نفسه عهداً أن يجعل مواهبه وقفاً على هدم تلك الأسوار التي تحجب من ورائها رجال الكنيسة والملك وجعلوا يرمون من خلفها صواعق نقمتهم على أعدائهم ؛ وأصبح فولتير في عصره (رسول التسامح والإصلاح) ولكن كان للتسامح عند الكنيسة اسم آخر هو (الاتحاد) ولذا للإصلاح عند الملوك اسم آخر هو (الثورة) ؛ فعاش فولتير في نظر السلطات (ملحداً ثائراً) ولاقى منهم ما أعدوه من العذاب للملحدين الثائرين . ولكنه عاش كذلك في

نظر الناس فيلسوفا حرا ولاقى منهم ما أعدوه من التعظيم والتقدير للفلاسفة الأحرار!

ولكى ترى مثالا من حملاته على رجال الدين وتقف على وجهة نظره فى الإصلاح ، أقتبس لك شيئا مما كتبه تحت كلمة « قانون » فى قاموس فلسفى صغير نشره سنة ١٧٦٤ :

[— كل ما هو خاص بالزواج ينبغى أن يرجع فيه الى السلطة المدنية ، وليس على القسيس الا أن يبارك الزوجين — ينبغى أن يخضع القسس للحكومة لأنهم أفراد من الرعية التابعة للدولة .

— ليس فى مقدور القسس أن يحرموا أى انسان شيئا من حقوقه بدعوى أنه خاطيء ، فان القس يحكم كونه حتما من الخاطئين ينبغى أن يقصر عمله على الاستغفار للخاطئين دون أن ينصب نفسه لمحاکمتهم .

— ينبغى على الموظفين والعمال والقسس جميعا أن يشتركوا فى دفع الضرائب للدولة لأنهم جميعا أفراد فيها .

— ليكن عقاب المجرمين نافعا ؛ ان الرجل الذى يشنق لا يصاح لشيء ، أما الرجل الذى يحكم عليه بالأشغال الشاقة فانه يظل خادما لبلاده ويبقى مثالا حيا يتعظ به الناس .

— ينبغي أن يكون القانون واضحا عاما دقيقا ، فإن آفة القوانين تفسيرها .

— لا ينبغي أن تجبى ضريبة الا اذا روعى فيها أن تتناسب مع موارد الشخص الذى فرضت عليه [

غير أن فولتير لم يكن فيلسوفا جافا كما اعتاد غيره من الفلاسفة أن يمتازوا بالجفاف ، ولكنه كان ظريفا فكها خفيف الروح فى كلامه بحيث تتفتح له الآذان وتنشرح لوقع ملاحظاته الصدور وكانت هذه الخاصة فى أسلوبه أقوى دعامة قام عليها نفوذه الهائل وتأثيره العظيم .

وأما منتسكيو فقد طاف كزميله فولتير بجميع الدول الأوربية ثم استقر فى فرنسا ووضع كتابه الذى أسماه (روح القوانين) . وقد جمع فيه توارىخ أنظمة الحكومات وأنواعها وعدد مساوى كل منها ومحاسنه ونصح أخيرا بوجوب اشتراك الملك مع الأشراف والعامّة فى حكم البلاد على مثال الدستور الانجائيزى .

وأما ديدرو ودالمير فقد تعاونا فى وضع دائرة المعارف الفرنسية التى كان لها أعظم أثر فى نشر العلوم وتثقيف الأذهان واعدادها لفهم المشكلات .



لويس الخامس عشر

(٣) ماري انتوانت ولويس السادس عشر:

(١) زوجين

نقول ماري ولويس ، وكان حقاً أن نقول لويس وماري لولا أن الأميرة كانت صاحبة اليد العليا في هذه الشركة وأنها ما لبثت أن غادرت أمها ماريّة تيريزا أمبراطورة النمسا ودخلت البلاط الفرنسي عروساً لولي عهد فرنسا لويس السادس عشر حتى جعلت زوجها تابعاً لها وفرداً من أفراد حاشيتها ؛ فلما انقضت أيام جده الفاجر لويس الخامس عشر ودوت في أرجاء القصر تلك الصيحة القديمة « مات الملك فليحي الملك » . تقدمت هي على زوجها وتولت عنه حكم الشعب الفرنسي وأصبحت منذ ذلك الحين القوة المحركة لسياسة فرنسا والعامل الأكبر في وقوع ما ألم بها من الخطوب ؛ فهي التي تولت انتخاب سلسلة الوزراء الذين تعاقبوا في مستهل حكمها لعلاج الأزمة المالية التي كانت تشكوها البلاد ، فلم يفلحوا وفتحوا للشعب بتناقض سياستهم سبيل التمرد والثورة ؛ وهي التي عينت (نكر) وزيراً ثم أقالته ثم استرجعته ؛ وهي التي أشارت باتباع وسائل القمع لمقاومة الجمعية العمومية بعد اجتماعها الأول ؛ وهي التي أشرفت على فكرة فرار الأسرة المالكة من فرنسا ؛ وهي التي رسمت الخطط بعد فشل هذه الفكرة لتحريض

حكومات أوروبا على رجال الثورة ؛ وهي التي أوجت بما هو معروف في التاريخ « بتصریح برنزويك » ، وأوعزت بتهديد باريس بالتخريب والتدمير إذا لم يعمل رجال الثورة على إعادة الحال الى ما كانت عليه قبل الثورة (١) .

ولكن لنعد الخوض في هذا الحديث الآن ولنعد قبل الاسترسال فيه الى طفولة ماري أنتوانت لنرى كيف نشأت ولنعرف أى الظروف تلك التي جعلتها ملسكة على فرنسا لتلقى حتفها على يد ذلك الشعب الذى اختارت أن تحكمه .

كانت ماري أنتوانت ابنة مارية تيريزا امبراطورة النمسا ، وكانت النمسا فى ذلك الوقت على رأس الدول الأوروبية فى عظمتها وسلطانها ، وكانت لا تزال مصائر الشعوب رهن ارادة الملوك العظام وكان التملك عليها موضوع أحلام بنات القصور العريقة ؛ فجلست مارية تيريزا تداعب ابنتها يوما بسؤالها عن الشعب الذى تطمح الى التملك عليه ، فأجابتها ماري أنتوانت أريد أن أحكم الشعب الفرنسى الذى حكمه هنرى الرابع ولويس الرابع عشر .



ماري انتوانت

وشاءت الأقدار أن تتفق هذه الأمنية مع سياسة لويس الخامس عشر الذى أراد أن يتخذ النمسا حليفة لفرنسا ضد بروسيا عدوته ، فلم ير وسيلة لتحقيق ذلك خيرا من تزويج حفيده وولى عهده من الأميرة النمساوية الشابة فبعث الى سفير فرنسا فى النمسا يستشف رأيه فى امر هذا القران فجاءت اجابة السفير باعثة على أشد الاطمئنان والارتياح حيث قال فى معرض حديثه عن الاميرة : — « انها كاملة الجمال من خلق ومن خلق ، ذات ذكاء نادر وخلال سامية تفيض نفسها الشابة غبطة وابتهاجا وطربا وهى ميالة الى الحصول على رضاء الناس ، وفيها من الخصال التى تكفل سعادة الزوج أبدعها وأوفرها » .

فسر الملك الشيخ لهذا التوافق ولم تنقض على ذلك الا أسابيع معدودة حتى أعلنت الخطبة رسميا ، ثم جاء موعد الزفاف وسافرت الاميرة الى زوجها ، ووصل موكبها الفخم الى ستراسبورج فى اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٧٧٣ حيث استقبلها عظماء البلاط الفرنسى : ومن ثم سار الموكب الى فرساي بين الهتاف المتواصل والحفاوة البالغة . وفى ١٦ مايو سنة ١٧٧٣ احتفل بعقد الزواج ، وظلت الحفلات والمراقص قائمة أياما عديدة الى أن انتقلت الأميرة الى باريس فى ٨ يونيه بين أنخم مظاهر الهتاف والترحيب .

ولقد كان من تأثير الأميرة بتلك الحفاوة التي لاقاها بها الشعب الفرنسي أنها كتبت الى أمها تقول : « لست أستطيع أن أصف لك يا أمي العزيزة مظاهر السرور والعطف التي أغدقت علينا ولقد كنا نصافح الشعب بأيدينا ، وكان ذلك من أعظم بواعث السرور وما أسعدنا اذ نستطيع أن نحصل على حب الشعب بذلك الثمن البخس ! ومع ذلك فليس ثمة أنفوس من هذا الحب ؛ لقد شعرت بهذا ولن أنساه قط . »

والواقع أن تلك الأميرة الخلافة استطاعت أن تتمكن لنفسها في نفوس الفرنسيين بما كانت عليه من المحاسن والظرف وساعدها على ذلك ما هو معروف عن ذلك الشعب من تمجيده لتلك الخلافة وتأثره بالمجاملة ورقة الشمائل .

واستطاعت الأميرة كذلك أن تفنن رجال البلاط ونساءه وأصبحت في منزلها الجديد موضع عطف الجميع و إعجابهم غير أن ذلك الفوز الباهر لم يلبث أن أثار الغيرة في صدور الحساد أمثال (مدام دي باري) خلية الملك لويس الخامس عشر وغيرها فأخذوا يدسون لها الدسائس وساعدتهم هي بتصرفاتها الطائشة ؛ فانها على الرغم من كل ما عرفت عنها كانت لا تخلو من نقائص تشوب خلق أمثالها المدللات فكانت متشعبة الأهواء



ماری دی باری

متقلبة النزعات ، وكانت تصغى أحيانا الى نداء أهوائها المجردة ؛ وقد وفدت على بلاط يموج بالرذيلة والحلال الفاسدة وهى طفلة لا تحسن خوض هذه الغمار الخطرة فكانت هذه الخفة من جانبها سببا فى إثارة عاصفة من الأقاويل والمفتريات حول سيرها وتصرفاتها ؛ وهى عاصفة لم تلبث أن جازت القصر الى الخارج ، وهبت بين طوائف الشعب تحمل ضربا شتى من الاتهام والقذف ، وكانت سببا فى ازدياد سخط العامة على الملكية وأهلها كما ستراه مفصلا فيما يلى من الحوادث .

تلك كانت ماري انتوانت (١) ولم يكن أليق لها من زوجها ولى عهد فرنسا ، فانه لم يكن يسع نقائصها هذه الا صدره السمع الواسع ، ولم تكن تطيق سمعتها المشلوبة غير أذنه الثقيلة القليلة الاكثرات ، ولا كان يحتمل حدتها العنيفة مثل طبعه البارد البليد . لقد كانت الاميرة كثيرة الزهو شديدة الكبرياء ميالة الى الغزل واللهو فكان لا بد لها من الأصدقاء ، وكان لا بد لها من التلهى ، وكان لا بد لها أيضا من زوج ضعيف هادى ينكسر على لين طباعه شذوذها ، ولكن الطبيعة حابتها الى النهاية القصوى فى منحها هذا الزوج الممتع الذى لم يخلق لغيرها ، فانه فضلا عن

(١) قضايا التاريخ الكبرى للاستاذ عنان .

كل ما وصفناه لك به كان ذا ميزة عظيمة أخرى ؛ ربما كان من عدم اللياقة التاريخية ذكرها والافصاح عنها ولكن يكفيك أن تعلم أنه عولج من ذلك المرض وأنه استطاع أن يعاشر زوجته معاشرة الأزواج للمرة الأولى بعد سبع سنوات من زواجها ؛ ولقد بقي ذلك (الرجل المسكين) كما كانت تسميه الأميرة متأثراً طول حياته بتلك الحالة التي كان عليها في مستهل شبابه ولعلها تفسر كثيراً من طباعه التي اشتهر بها كعدم ثقته بنفسه ، وسهولة انتياده لغيره ، وأخذه بكل يد تمتد له ، وتقلبه تبعاً لارادة كل ناصح ومشير (١)

بقيت ماري مع زوجها على هذه الحال حتى مرض جده الشيخ مرضه الأخير في أواخر أبريل سنة ١٧٧٤ ثم وافاه أجله المحتوم في العاشر من شهر مايو سنة ١٧٧٤ فهرعت الجموع الى القصر الملكي للتهنئة والتعزية ، وأقبل الشعب المضي يحيي العهد الجديد بعد أن ذاق في العهد الماضي صنوف الذلة والارهاق . وأقبلت ماري انتوانت ويدها في يد زوجها فخرا على ركبتيهما داعين « اللهم سدد خطانا وتولنا بحمايتك فاننا سنحمل أعباء الحكم صغيرين جداً !



« اللهم سدد خطانا ! سنتولى الحكم صغيرين »

ولقد كانا حقاً صغيرين فان الملك كان فى العشرين من عمره
أما الملكة فانها كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ولم تك بعد بلغت
هذه العشرين

(ب) مارى انتوانت ولويس السادس عشر

(ملكين)

انقضى بموت لويس الخامس عشر دور ولاية العهد وأقبل
دور الملك والسلطة ، انقضى دور العبث وجاء دور الجد ،
وانقضى دور الخلو وجاء دور المسئوليات ولعل خير ما يصور لك
نفسية الملكين الشابين فى هذه الفترة ما كتبه الملكة لأمها فى
الرسالة التالية

شوازى فى ١٤ مايو سنة ١٧٧٤

سيدتى وأماه العزيزة :

لا شك أن الكونت (ميرسى) — [سفير النمسا الذى اختارته
مارية تيريزا ليكون مستشاراً لابنتها الصغيرة فى فرنسا] قد
أخبرك بتفصيل ما جرى فلقد ظل الملك حافظاً لشعوره الى آخر
لحظة من عمره وكانت خاتمة حياته عبء لمن شاء أن يعتبر ، ويخيل

الى أن الملك الجديد قد استولى على قلب الشعب فانه قبل وفاة جده بيومين قام بتوزيع مائتي ألف فرنكا على الفقراء وكان لذلك أحسن الأثر؛ وهو منذ وفاة الملك يعمل من غير انقطاع ويجيب بخط يده على ما يكتبه له وزراءه الذين لم تتح له الفرصة لرؤيتهم بعد . وهو يرد كذلك بنفسه على رسائل كثيرة أخرى ومما لا شك فيه أنه يحب الاقتصاد وأن أقصى همه أن يوفر أسباب الرفاهية لشعبه وليس يوازي اهتمامه بالتعلم إلا رغبته في الاستفادة . وإني أسأل الله له في ذلك كل توفيق

وإن الجمهور ليتطلع الآن الى كثير من التغييرات ولكن الملك اكتفى بأن أرسل مدام دوبارى (محظية جده لويس الخامس عشر) إلى الدير وأن طرد من بلاطه كل من له اتصال بها ولقد منعت من أن أزور عمتي أديلايد لأنها تشكو الحمى والمآ في وسطها ويخشون أن تكون قد سرت اليها عدوى الجدري وهي تقوم بتمريض الملك الفقيد

ولقد خولني الملك من الساطة بوصف كوني ملكة ما أستطيع معه أن أملاً جميع المراكر الخالبة في حاشيتي

وإني وإن كان الله قد من على بأن أولد لأشغل هذا المركز الذي أشغله اليوم لا أتمالك أن تتولاني الدهشة حينما أرى المقادير

تختار صغرى بناتك لتجلس على أجمل عروش أوروبا واني لأحس
أثر من قبل بكل ما أنا مدينة به الى عطف والدتي العظيمة التي
تجشمت كل صعب في سبيل احراز هذا لي . وما أحسست يوماً
بما أحس به اليوم من الرغبة في أن أطرح نفسي على قدميها وأن
أقبلها وأكشف لها عن نفسي لترى الى أي حد هي مفعمة بالاجلال
والحب و عرفان الجميل .

حاشية بخط الملك

اني ليملائي السرور أن تتاح لي الفرصة يا أمي العزيزة لأعرب
لك عن حبي وإخلاصي ، ومن لي بنصحك الغالي في هذه الأيام
العصيبة ! واني لأرجو أن أوفق الى ما فيه رضاؤك لأقيم من ذلك
دليلاً على مبلغ ما أنا مدين لك به من الشكر على إنعامك على بابنتك
التي لا أطمع في سعادة وراء ما أنا متمتع به معها .

خاتمة الرسالة بخط الملكة

لم يرض الملك أن أبعث اليك برسالتى دون أن يخط لك فيها
كلمة بنفسه واني لموقنة أنه كان يجب أن يكتب لك رسالة كاملة
ولكنى أرجو أن يكون له عندك بعض العذر نظراً لكثرة ما يقوم

به من الأعمال بله ما في طبيعته من الخجل والحياء الشديد . وأنتك
لترين يا أماء بما ختم به عبارته أنه على الرغم من شدة محبته لى حريص
على ألا يغدق على من الشاء الفاتر ما تمتلىء به نفسى غرورا (١) .

هكذا بدأ هذان الشبان حياتهما الملكية ! رغبة خالصة من
الملك فى الاقتصاد وتوفير أسباب الرفاهة لشعبه ومعاونة قوية من
الملسكة فى تحقيق هذه الغايات .

ولكن ضعف الملك واستسلامه أفسح الطريق أمام المتطفلين
على موائد الحكم فلم يلبث أن دخل فى ميدان العمل وزراء منافقون
أثانيون ، وكنت فى زوايا القصر الملكى حاشية نفعية رجعية ؛
ثم غشى الجميع شعب جائع هائج فاختلف فى المعمة الحابل
بالنابل ، وانفجرت الفتنة على رأس الجميع .

ولكن عند انفجار الثورة لم يكن يفكر رجالها فى الوصول
الى ما وصلوا اليه أخيرا ، وإنما جاءهم ذلك عرضا ، وكانت كل
خطوة يخطونها تسوقهم الى التى تليها وهكذا ؛ فلم يكن أحد منهم
يفكر مثلا فى أول الأمر أن يغير نظام الحكم الملكى ويستبدل به نظاما

جمهوريا ، ولكنهم كانوا يريدون أن ينشئوا حكومة حرة تحت لواء الملكية وكانوا يريدون تنظيم الملكية لا تحطيمها ، ولم يكن يسعى احد الى استدعاء طبقات الشعب الجاهلة للاشتراك في حياة البلاد السياسية ، ولكن مبدأ سيادة الأمة الذي كان يبشر به الفلاسفة والكتاب هو الذي أدى الى نشر روح الديمقراطية وصب الحكومة في ذلك القالب الجمهوري الذي هو الصورة الطبيعية لنظام الحكم الديمقراطي .

الفصل الثالث

موقف الطبقات حيال حركة الإصلاح ^(١)

لقد كان لكل طائفة من طوائف الأمة موقفها الخاص حيال حركة الإصلاح التي بدأها لويس السادس عشر.

فأما الأشراف والأكابر وسفكاًن جلتهم يريدون الاستمساك بالنظم العتيقة محافظة منهم على امتيازاتهم وحقوقهم ، وهؤلاء كانوا عامل السوء وعنصر الرجعية ونذير الشؤم والخراب الذى حل بالبلاد . ولكن كانت فيهم أقلية تأثرت بكتابات المفكرين وأشربت روح العصر الحديث وانضمت الى طبقات الشعب فى المطالبة بالمساواة وضحت فى سبيل هذه الدعوة بصوالجها وامتيازاتها . وأما طبقة الفلاحين والعامّة من أهل المدن فهم الذين كانت تدور عليهم ربحى البؤس وتطحنهم معاصر الشقاء ؛ عجاف أهزلهم جباة الضرائب ؛ ضعاف أثقلهم تكرار وقوع القحط ؛ فكانوا

(١) كتاب تاريخ القرن التاسع عشر

يستندون الى كل يد تمتد اليهم . وصاروا لهذا السبب العوبة في أيدي ذوى الغايات من الرعماء السياسيين الذين أنجبتهم الطبقة الوسطى .

وأما هذه الطبقة الوسطى فهى طبقة المتعلمين الذين بعد أن هياؤا أنفسهم للحياة وقف الأشراف في سبيلهم وسدت الامتيازات طريقهم فحرموا من الوظائف والمراكز التى تؤهلهم لها كفاءاتهم فاستعانوا بأهل الطبقة العامة ليكونوا عدتهم فى نشر الفتنة وقلب النظام .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الطبقة هى التى بدأت الثورة وأوقدت ناراها وظلت المعركة قائمة بينها وبين أصحاب الامتيازات زمنا كان الشعب فيه خارج الميدان يكتفى بمشاهدتها والتحمس لها فما هو إلا أن خرج من دور التحمس الى دور الاشتراك الفعلى حتى طم سيله وجرف تياره جميع الطوائف الأخرى ؛ فأصبح الحكم فى باريس لرعاها ووقعت فرنسا كلها تحت سيطرة سوقتها وجهالها .